فتحية العسال

«تحديت الأمية والتخلف الاجتماعى وعلمت نفسى القراءة والكتابة. ثم تحديت الجميع وأصبحت كاتبة ومؤلفة دراما. ثم تحديت السائد والمألوف وتلقنت الماركسية».
فتحية العسال
(فى حوارها معى)

الأب رجل ميسور الحال، لكن المال عنده سبيل لإمتاع نفسه. والمتعة عنده أن ينفق ما يكسب على زواج جديد. ويتنقل مع كل زوجة جديدة من بيت إلى بيت، لكنه يتنقل ومعه كل الأسرة الزوجة الأولى والأولاد إلى حيث الزوجة الجديدة ووفقا لمستواها الاجتماعى. فالزوجة الأرستقراطية ينتقل بها إلى كوبرى القبة ثم زوجة متوسطة الحال يعود بها إلى السيدة زينب، دخلت فتحية التى كانت مفعمة بالحيوية والنضوج المبكر إلى المدرسة الألمانية ثم خلعت المريلة السوداء التى تفرضها مدرسة شديدة الوقار لترتدى مريلة عادية فى مدرسة عادية تليق بحى السيدة زينب. سريعا بل سريعا جداً نضجت البنت التى لم تزل فى الأولى الابتدائية أمها قالت: «خراط البنات خرطها بسرعة»، فجأة وهى لم تزل طفلة فى الأولى الابتدائية تقدم لها عريس، انتبه الأب المنشغل دوما بالبحث عن زوجة جديدة أن البنت كبرت، فأمر بأن تخرج من المدرسة وتحبس فى البيت، فى البداية فرحت؛ فلا مدرسة ولا واجبات منزلية، ثم بدأ الملل. كانت تمسك الجريدة فلا تفهم شيئا، الملل كاد أن يقتلها وبدأت رحلة التحدى. تنطق الأحرف، تكتبها، تركب منها كلمات وأمها تساعدها.. وفجأة انتبه الأب أنها تقرأ وتكتب فبدأ يحضر لها جرائد ومجلات. وإذا كان الخروج ممنوعا فإن التلصص من الشباك يبقى المتعة الوحيدة «لترى أناسا يعبرون الطريق أو بائعا يصرخ على بضاعته»، لكن «عائشة» الأخت الصغرى فتحت الشباك عدة سنتيمترات أزيد، فرآها عسكرى إنجليزى فصعد بغير تستر ليسأل عن البنت الجميلة، الأم

صرخت وتجمع الجيران وضربوه علقة ساخنة، وينتبه الأب فيصدر أمرا ممنوع فتح الشبابيك، لكن باب السجن يمكن أن ينفتح. تفجرت مظاهرات طلابية، سمعت الأم من الجيران أن البوليس يضرب طلبة مدرسة الخديوى إسماعيل (كان ذلك فى عام ١٩٤٦) فزعت الأم على ابنها (حسنى) صرخت ثم صاحت فى فتحية: «إنزلى يا بت شوفى أخوكى»، وانطلقت البنت ذات الثلاثة عشر عاما لتقفز بجنون فى الشوارع ولترى ما لم تره منذ سنوات، اطمأنت على حسنى، لكن مظاهرة لبنات مدرسة السنية صادفتها فانطلقت معها وهتفت معهن: «عاشت مصر حرة» و«الجلاء بالدماء». تدفقت فيها حيوية سنين من العزلة القاتلة وعادت إلى البيت، وقد أصبحت فتاة أخرى، ومرة ثانية يفتح باب السجن، أختها فى حالة وضع وأرسلت تستدعى الأم، أرسلتها الأم لتبقى مع الأخت حتى تستعد هى بشراء ما هو ضرورى وتلحق بها. على رصيف ترامواى ١٧، كانت هناك ابتسامة هادئة واثقة من نفسها، أرسل إليها قصائد عديدة من نظرات قالت كل شىء. ركبت الترامواى. ركب معها بابتسامته. نزلت نزل معها تابعها حتى دخلت بيت الأخت انشغلت عديدا من الساعات مع الأخت والمولود والأسرة ثم ألقت نظرة خاطفة من الشباك لتجده جالسا ومعه ابتسامته على رصيف المقهى المقابل للبيت. من العاشرة صباحا ظلت هذه الابتسامة محلقة على رصيف المقهى حتى السادسة مساء. عادوا إلى بيتهم وعاد خلفهم، وفى الصباح التالى تسللت نظرتها من شباك غرفتها لتجد ذات الابتسامة جالسة مع صاحبها أمام محل عم أحمد المكوجى. نسجت العلاقة نفسها بنفسها عبر إصرار لا ينقطع. وعبر وسيلة الاتصال المعتادة، خادمتهم بسيمة تلتقى مع خادمه سعيد، ليتبادلا الرسائل. هو كتب خطابا ملتهبا، هى خافت. بل هى لا تعرف ماذا تكتب فى خطاب غرامى، فكتبت قصة قصيرة وأرسلتها مع بسيمة وهكذا اندفعت بالحب عبر عالم الإبداع. والشاب الذى لم يزل فى سنة أولى حقوق يستجمع شجاعته ليذهب للأب ويطلبها للزواج الأب يسأل: «فين أهلك؟» ويرد: «أجيبهم حالا من المنصورة»، ويتململ الأب ويبدأ فى فرض شروط قاسية لعل الولد المفعوص يتراجع فيقول المهر ١٠٠ جنيه والإجابة بلا تردد: موافق. والمتأخر ١٠٠ جنيه والإجابة لأ.. ألف جنيه وحتى مليون جنيه، تزوجا وهو طالب. تخرج معه كل صباح إلى الجامعة، وقاعة المحاضرات تتابع وتذاكر معه وتواصل تحدبها للجميع. الحياة صعبة جداً. الشقة ضيقة فى حارة ضيقة اسمها درب البلهوان. والطعام شحيح،

وأمه ترسل له نقودا محدودة، كلما جاعا وشعرا بالحاجة إلى تغذية يدخران بعض المال وإلى المنصورة ومنها إلى قرية ميت خميس الملاصقة حيث الأم والفراخ والبط والرقاق. ذات يوم حملا ابنهما إيهاب (٦ أشهر) وذهبا إلى المنصورة بحثا عن مذاق البط. فى ميدان المحطة وجدت أن كل ما معهما ١٢ قرشا ركبوا «حنطورا» وقالت للعربجى: عايزين نركب بـ ١٢ قرش. وأنزلهم فى نصف الطريق ليكملوا الرحلة على الأقدام.

وفى ظل ذلك كله كان بيت درب البهلوان محطا لاجتماعات لا تنتهى. سألت. قال «عبدالله»: «إننا بنشتغل ضد الإنجليز». طبعا عرفتموه هو عبد الله الطوخى. وتمضى الحياة لتصبح قصة فتحية وعبد الله واحدة من أجمل قصص الحب اليسارى. ونمضى مع رحلتهما.

* * *

«حاول عبد الله أن يبعدنى عن النضال الشيوعى خوفاً علىّ. وذات يوم حاول أن يخيفنى وقال لى: قد أسجن. فقلت: وأنا معك».
فتحية العسال
(فى حوارها معى)

مضت الحياة، الفقر هو سيد الموقف، لكن السيد الأكبر كان هذا المسلسل الدائم من الاجتماعات والأوراق والتحركات السرية. وذات يوم دخل عبد الله ومعه رجل وقال عندنا ضيف (إنه رجل مثير للدهشة دوما. سجين دائم اسمه فتحى أبو طالب قبض عليه فى قضية كانت الأولى من نوعها.. سرقة البنك الأهلى، كان ضمن المجموعة التى جندها شهدى عطية فى سجن طرة. وأصبحوا وهم سجناء أعضاء فى منظمة «حدتو». وفتحى أبو طالب سجين أسطورى هرب عديدا من المرات من أكثر السجون قسوة وأشدها حراسة. هرب هذه المرة لينضم لنضال «حدتو». لكن الأمن تصور أن «حدتو» قامت بتهريبه لكى يغتال محمد نجيب انتقاما لقتل العاملين خميس والبقرى.. ولهذا قاموا بحملة مطاردة شديدة العنف). فى منتصف الليل دق الباب بعنف. ارتبك الجميع.. هى صرخت بسرعة بديهة: «استنوا شوية لما ألبس هدومى».. دقيقة واحدة وتلفتت لتجد أن الضيف طار عبر مواسير الدور الرابع ليكون فى الشارع الخلفى. قبضوا على عبد الله وحبس شهرين.

وعاد لتعتصر منه الحكاية الحقيقية، حكاية نضاله مع «حدتو». والشيوعية، والفقراء والظلم.. فقالت له: أنا معك.

– أنا شيوعى.

– وأنا معك.

– قد أسجن.

– وأنا معك.

– سأترك المحاماة وأحترف وسيكون راتبى ٦ جنيهات وسنجوع.

– وأنا معك.

ومضت معه فتحية فى «حدتو» كجزء مهم فى شبكة الاتصال السرية. تحمل رسائل ونشرات، تزور السجناء وتنقل لهم ما يجرى. ذات يوم وفى سجن طنطا كانت تزور فؤاد حبشى، أمسكها المأمور: أنت مسلمة وهو مسيحى، لكنها أفلتت بأعجوبة عبر ابتسامة صافية وعينين هادئتين، المهم أتمت الزيارة. سجن عبد الله فى سجن مصر، أصبح موطنها أمام سجن مصر، وأصبحت زعيمة عائلات الشيوعيين بلا منازع وشريكة فى المظاهرات ومسئولة عن شبكة الاهتمام بالعائلات. تذهب وتجىء، تسافر وتعود. تنقل أوراقاً وتأتى بالرد. لكنها لا تعرف ما هى الشيوعية ولا لماذا يسجن هؤلاء؟ ولا ماذا يريدون؟ وذات يوم قابلت زكى مراد. كان هاربا. وفيما كان يعطيها تعليمات إثر تعليمات صرخت فى وجهه: «إنتوا إيه حكايتكم، مش أعرف الأول انتو عايزين إيه؟» وفتح زكى مراد طاقات ضوء لا ينتهى تألقه. شرح وشرح وقرأت وقرأت واكتسبت الحياة مذاقا آخر، وأصبح الحماس أضعافاً مضاعفة. وانضمت إلى واحدة من خلايا «حدتو» فى «روزاليوسف» حيث كان عبد الله يعمل ومعها فى الخلية صلاح حافظ – سعد التائه – جمال كامل – كانت حسنة الحظ فعلا وانطلقت بحماس غير محدود، خاضت مع العلائلات مظاهرات عديدة «أفرجوا عن أزواجنا».. «أفرجوا عن أبنائنا» ويقبض عليها مرة ومرات ولا تهدأ. واعتصمت النساء ذات يوم فى «روزاليوسف» ثم فى «أخبار اليوم» ودخلت على مصطفى أمين تطلب تبرعاً لعائلات السجناء الشيوعيين. ذهل الرجل المعادى للشيوعية، لكنها ألحت، وتبرع بمائة جنيه. وتمضى زهور النضال اليسارى لتتفتح ويفوح عطرها. لكن عبد الله يخرج من السجن غاضبا من كل الرفاق بسبب الانقسامية والانقسامات.. أما هى فلم تغضب

وواصلت نضالها، فهى عضو فى مكتب رعاية العائلات وعضو فى مكتب الكتاب والفنانين، ومع هذا كله يتفتح الإبداع الفنى، تكتب مسلسلات للإذاعة واشتهرت حتى أصبحت تحصل على أعلى أجر، ومن الإذاعة إلى التليفزيون ثم إلى المسرح لتصبح فتحية واحدة من أشهر الكاتبات فى العالم العربى. وكأمر طبيعى تماما أتت إلى «التجمع»، دخلت وكأنها تدخل إلى بيتها.. «أنا جيت» وقلنا بافتخار «أهلا وسهلا». وتشارك معنا فى مظاهرات أكثر تحديا، وخاصة بعد كامب ديفيد، ويقبض عليها ذات ليلة وإلى السجن. لكنها تخرج من السجن أكثر صلابة. ويصدر قرار بمنع التليفزيون والمسرح والإذاعة من التعامل معها. ولأنها اعتادت العمل السرى كتبت باسم سرى هو «نجيبة العسال». وتتفتح ورود جديدة أكثر.. مسلسلات ومسرحيات اكتسبت شهرة فائقة، وأصبحت رئيسة لاتحاد الكاتبات وأمينة لاتحاد النساء التقدمى.

وتتواصل رحلة عشق يسارى لا ينتهى.